المحاضرة الخامسة: مسرح العصور الوسطى

في هذه الفترة استثمرت القصص الإنجيلية وأحداثها الطقوسية والقداسية في توليد العروض المسرحية التي تجسد الصراع بين ما هو دنيوي وأخروي، وصراع مريم والمسيح ضد الأهواء والشياطين. واستعان الممثلون بفنون حركية وملابس درامية خاصة، وكان هذا بداية جنينية للإخراج المسرحي.

وإذا كان المسرح الروماني قد ارتبط بفضاء معمارية الإمبراطورية اليونانية فإن المسرح في العصور الوسطى ارتبط بفضاء درامي ديني طقوسي لا يخرج عن فضاء الكنيسة أو الكاتدرائية الإنجيلية أو الفضاءات الدينية ذات الديكور الديني الإنجيلي المعروف التي تجسد ثنائية الجنة والجحيم والأهواء وخطاب المعجزات والمقدسات الدينية.

ومن النصوص التي تعود إلى تلك الفترة نص مجهول أنجلو نورماندي بعنوان (لعبة آدم) يتضمن 942 بيتا شعريا وإرشادات مسرحية غنية وواضحة مكتوبة باللاتينية.

ويلاحظ أن في هذه الفترة يمكن الحديث عن أنواع ثلاثة من المسرح الوسيطي:

أ–المسرح المقدس(الديني)؛

ب–المسرح المدنس (مسرح دنيوي هازل)؛

ج–المسرح الأخلاقي الذي تشرب من تعاليم الإنجيل وقيمه التهذيبية.

مدخل إلى الدراما في العصور الوسطى

يُعد "سينيكا" آخر كاتب مسرحي له أهمية في تاريخ المسرح الروماني، فقد مات عام 65 م وبعده استمرت العروض المسرحية إلى أن نصل إلى عام 476 م، وهو العام الذي شهد سقوط "روما" وإمبراطوريتها الغربية، على أن هذه العروض المسرحية أخذت في التدهور شيئًا فشيء حتى بلغت النهاية في الرخص والبذاءة، وهذا هو السبب الذي جعل الكنيسة، فيما بعد، بعد أن تتسلم مقاليد السلطة، أو تستولي عليها بالمعنى الصحيح، تُحَرِّم المسرح تحريمًا قاطعًا في أي صورة من صوره المتعارف عليها، واعتبار الممثلين في فئة واحدة مع اللصوص وغيرهم ممن ينبذهم المجتمع. وهكذا سيطرت الكنيسة على كافة جوانب الحياة في "أوروبا" في العصور الوسطى ، وعليه جاءت كثير من التعاليم بعيدة عن سنة المسيح وتعاليمه، وذلك أن الكنيسة في أيامها الأولى كان لابد لها أن تعلن أن هذه الحياة مؤقتة ونحن في طريقنا من خلود الوجود السابق إلى خلود الوجود اللاحق، وعليه تسعى الكنيسة لتغطية الجسد الإنساني الذي تباهت به الحضارة الإغريقية لتخفيه الكنيسة وكأنه شيء فاضح، كذلك حاربت الكنيسة مفهوم الإغريق للفن، فهم يرون الجمال في الفن من أسمى وظائف

الإنسان، بينما تراه الكنيسة نشاطًا غير مستحب، كما أن الكنيسة تدعوا مريديها إلى اكتشاف عظمة هذا الدين وليس اكتشاف أسرار الحياة والموت كما كان يفعل الإغريق.

قد ترتبت على هذه النظرة أن تجمدت الكتابة المسرحية منذ وفاة "سينيكا" إلى أن نصل لما يسمى بالعصور الوسطى (من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر الميلادي) وإن ظهرت بعض الأعمال الفنية التي قدمتها فرق الممثلين الجوالين التي لم تختف على الإطلاق بل ظلت مستمرة معظم الأوقات، كذلك ظهرت محاولة من قبل راهبة من "ساكسونيا" تدعى "روزفيتا" كتبت عدة كوميديات ورعة على نمط كوميديات "ترينيس" الروماني.

وعليه نستطيع القول أن العصور الوسطى لا يمكن أن تسمى بأنها عصور مظلمة على طول الخط، فقد كانت مظلمة حقًا فيما يتعلق بالنسبة لتاريخ الكتابة المسرحية، ومع ذلك فإن عودة ظهور المسرح خلال القرن العاشر لا تعود إلى فرق الجوالين ولا إلى كتابات "روزفيتا"، بل ترجع إلى الكنيسة، مما جعل بداية المسرح مرة أخرى بداية دينية

وهكذا وجدنا دور الكنيسة يتبلور من خلال مسرحية صغيرة من أربعة سطور صغيرة تدخل على طقوس قداس الفصح الكنسية وترتب عليه أن ارتبط أداء الطقوس الدينية بشيء من التمثيل، وبعدها تطورت هذه المسرحيات الصغيرة وخرجت من الكنيسة ونظمت في مجموعات عرفت باسم "حلقات الأسرار"، وهي مسرحيات مستمدة من الكتاب المقدس، وظلت محتفظة بوظيفتها الدينية أساسًا.

ومما سبق نستطيع القول أن مرحلة العصور الوسطى هذه ستشهد المسرح المتجول الذي يعد من رواسب المسرحيات الكلاسيكية، وكذلك المسرح الكنسي للوعظ والإرشاد، وظهرت حلقات من مجموعات دينية وأخلاقية ذات قيمة تاريخية، أما من الناحية الفنية فقد مزجت الشعر الغنائي والشعر التمثيلي والقصصي،

1-المسرح الديني

- **المسرح داخل الكنيسة:**

إن أهم ما يتميز به الفن المسرحي في العصور الوسطى هو ظهور المسرحيات الدينية، فبعد أن كان رجال الدين يحرمون التمثيل ويطاردون الممثلين أصبحنا نرى فنًا جديدًا تحتضنه الكنيسة، ويقوم بالأدوار فيه رجال الكنيسة أنفسهم، ذلك أنهم رأوا في فن التمثيل لونًا من ألوان التبشير في عصر كثر فيه الجهل وانتشرت الشعوذة الدينية بجانب كثرة الحروب بين أمراء الإقطاعيات وما ينتج عنها من مجاعات وأمراض، وكان رجال الدين وقتئذٍ هم الفئة المثقفة في البلاد، وكان عليهم العبء الأكبر نحو المجتمع المليء بالشرور.

فأقدم نص وصل إلينا من المسرحيات الدينية هو ما كتبه الراهب الإنجليزي "سانت ريتولد" (915–975 م) عن عيد الفصح، وكذلك وصلتنا مسرحية "ميلاد المسيح" التي ترجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي الذي شهد عددًا كبيرًا من هذه المسرحيات.

ويظهر أن القسيسين الذين كانوا يقومون بالأداء التمثيلي كانوا يجدون لذة في ذلك، فحاولوا تطوير المسرح بإدخال المناظر المثيرة، كما حاولوا أن يقربوا المسرحيات إلى واقع الحياة فأدخلوا فيها عناصر ومواضيع غير دينية، مما أدى إلى تطور الأدب المسرحي والفنون المسرحية بصفة عامة، وظهور ما أسماه المؤرخون "الأدب المسرحي النصف ديني"، وكذلك خافت الكنيسة على أن تكون دورًا للتمثيل وأن يكون المذبح هو المسرح، فاضطر القسيسون إلى استخدام ساحات الكنائس لهذا الغرض.

والمسرحيات النصف دينية بدأت في "إنجلترا" ثم انتقلت إلى "فرنسا"، ومنها إلى "إيطاليا". وهكذا انتقلت المسرحية من بلدٍ إلى آخر من البلاد التي اعتنقت المذهب الكاثوليكي، ثم تطورت وتنقلت بما عرف القسيسين من طلاقة في اللغة اللاتينية، وفي نهاية القرن الثالث عشر الميلادي نجد تطورًا آخر في هذه المسرحيات، فقد لوحظ أن التمثيليات التي أخذت من الدين على اختلافها كانت تكتب باللاتينية، ثم كتب نصفها باللاتينية ونصفها الآخر بلغة من اللغات القومية الأوروبية. ولم تختف اللغة اللاتينية إلا بعد انتقال الحفلات التمثيلية من الكنيسة إلى الأماكن العامة.

- **المسرح خارج الكنيسة:**

تمكن الفن التمثيلي من الانفصال عن المراسم الدينية، وذلك عندما سيطرت اللغات الوطنية على هذا الفن بدلاً من اللغة اللاتينية، ففي الأعمال التي قدمت في نهاية القرن الثاني عشر، وخاصةً "قطعة من القيامة" و"تمثيلية آدم"، نجد أن هذه الأعمال أصبحت أشد ارتباطًا بالطقوس الكنسية من حيث موضوعاتها ومن حيث إدخال بعض النصوص الطقوسية في الدراما، ولكنها تتميز عنها بميزتين جوهريتين وهما أن الحوار فيهما باللغة العامية والحدث لم يعد يجري في الكنيسة، بل في مسرح مقام في الساحة التي أمامها، أو ربما في الدير.

لقد نشأ المسرح الفرنسي من هذه الأعمال التي أطلق عليها اسم "الدرامات شبه الطقوسية" والتي ستؤدي إلى ظهور الأسرار، وقد احتفظت الدراما الدينية في العصور الوسطى من أصلها الطقوسي بطابع المسرح الكامل، حيث نرى المناظر والغناء والموسيقى والحوار بل والرقص يتوالى كل منها بدوره للمساهمة في إثارة المشاهد، أو إمتاعه أو تعليمه.

تمثيليات الأسرار:

في القرن الثالث عشر كان المنشدون ينشدون آلام السيد المسيح بالشعر في الأسواق، ويقرنوها بمواقف تمثيلية صامتة، ومن ثَمَّ كونت فرقة محلية، وأسس أول مسرح دائم في "باريس" يوم خطيت إحدى الفرق بامتياز التمثيل بترخيص خاص من الملك "شارل السادس" واستمرت إلى الوقت الذي بدأ فيه "كورني" نشاطه المسرحي.

ومن بين المؤلفات التي صورت آلام المسيح بالفرنسية، نذكر منها ثلاثة من أشهرها ألفت في مدينة "أراس"، الأولى عبارة عن أناشيد بدائية عليها توقيع "أوستاس مركاديه" سنة 1420، والثانية من تأليف مدير الموسيقى في الكنيسة "أرنوجريبان" سنة 1450، وفيها فن شعري راسخ، ثم ثالثة مقتبسة من السابقتين جمعها "جان ميشيل" سنة 1486، وبها بعض التغييرات جمعها في حوالي 45 ألف بيت من الشعر، وكان يستغرق عرضها وترتيلها حوالي عشرة أيام. هذا والمؤلف قيم من ناحية أسلوبه الملون، وأغلب المناظر عبارة عن مناظر للحياة العادية، مثل حياة "عازار" أو حياة "مادلين"، وهي تؤثر فينا بألوانها الفنية.

وفي عام 1548 صدر قرار من برلمان "باريس" يمنع عرض مشاهد "آلام المسيح"، ولكنها استمرت في الأقاليم إلى نهاية العصر الكلاسيكي، وقد حاولوا إدخال تجديدات في هذه المشاهد وترك الجانب الوطني، ولكن هذا التجديد المفتعل والذي جاء متأخرًا لم يثمر سوى مؤلفات انتقالية. ونستطيع أن نختم القول بأن فن مسرحيات الأسرار انتهى بنا إلى "شكسبير."

لابد وأن نوضح أن مسرحيات (تمثيليات) الأسرار قد أخذت عدة مراحل في ظهورها وتطورها، فالمرحلة الأولى وهي مسرحية تصور عذابات المسيح، والمرحلة الثانية تسمى بـ"مسرحيات الكرامات "Miracle Plays، والمرحلة الثالثة أو النوع الثالث يسمى بالمسرحيات الأخلاقية. كذلك تتوافر لدينا عدد من المسرحيات الدينية المنتمية إلى هذه الفترة، وهما "تمثيلية آدم" و"معجزة المرأة التي نجتها السيدة العذراء من الحريق"، وهي نصوص كاملة سنعرض لها بالحليل.

2-المسرح الهزلي

عرف المسرح في العصور الوسطى نوعًا آخر من أنواع الدراما ظهر وتطور خلال العصور الوسطى، أو قد يكون قديمًا لم يختف، وهو ما عرف باسم "مسرحيات الفاصل الهزلي"، ومن المحتمل كذلك أن تكون نشأة هذه "الفواصل" راجعة إلى المسرحيات الأخلاقية أو العروض التي كان يقدمها الممثلون المتجولون.

وأيًّا كان الأمر، فإن هذه "الفواصل" تمثل خطوة مهمة في تاريخ الكتابة المسرحية، فقد أصبح المسرح من خلالها دنيويًّا من جديد، وعاد مرة أخرى إلى تأدية وظيفته الأولى، وهي التسلية والترفيه. وقد بقيت لنا عدة نماذج ممتازة من هذا النوع من المسرحيات.

الإخراج في مسرح العصور الوسطى:

لعل أصل ابتكارات العصور الوسطى في ميدان المسرح ينحصر في الإخراج المتصاحب الذي كان يستعمل في القرن الثاني عشر وامتد استعماله حتى عهد "كورني."

وينحصر هذا الإخراج في وضع جميع المناظر منذ البداية بعضها بجانب البعض الآخر، حيث ينتقل الأشخاص من أحدها إلى الآخر تبعًا لضرورات التمثيل، وفي وسعنا أن نتعرف على ملامح الإخراج فيما يتعلق بالمناظر المسرحية من مقدمة "البعث"، تلك القطعة التي ترجمها "سيبية" وذكر فيها أن الأماكن قد أعدت سواء مكان الصليب ثم القبر وغرفة السجن، ثم الجحيم والسماء، ... إلخ. وفي "تمثيلية آدم" يوجد ثلاثة أماكن على الأقل: الفردوس الأرضي في مكان مرتفع، ومحاط بواجهات منتهية بغرف صغيرة، ومزخرف بأغصان الأزهار، ثم الأرض حيث يرى "آدم" و"حواء" يعملان بعد خطيئتهما، ثم الجحيم حيث تخرج الشياطين الذين ينتشرون بين المشاهدين؛ وذلك أن مسرح العصور الوسطى كان يستخدم هو الآخر طريقة إيصال القاعة بالمسرح.

للاطلاع راجع:

1-سمير سرحان، دراسات في الأدب المسرحي.